تجليات الحجاج في رواية "عين التينة" لدى عبد الملك مرتاض

The manifestations of the pilgrims in the novel: Ain al-Tinah by Abd al-Malik Murtad

د. زاوي أحمد*

قسم اللغة العربية، جامعة وهران1 أحمد بن بلة (الجزائر)، **ahmed31zaoui@hotmail.com**

تاريخ الوصول 2021/03/08 تاريخ القبول 2021/10/29 تاريخ النشر2022/03/31

ملخص:

نحاول في هذه المقالة، البحث في الخطاب الروائي لدى عبد الملك مرتاض، ونركز في روايته–عين التينة– على أساليب الحجاج؛. والهدف الأساسي من كتابة هذا المقال هو البحث عن كيفية إقناع السارد للمتلقي بمجموعة من الأفكار والفلسفات، كما يسعى أحيانا أخرى إلى نقد جهة معينة أو دحض فكرة ما، وهدفه دائما هو حمل القارئ على مشاطرته رأيه، أو التصرف وفقا لما يرضاه أو يتوخاه، مثل رفض زيارة الأضرحة والتقرب إليها، ودعوتها ومناجاتها. فهو يستثمر السلم الحجاجي، بداية بالقرآن الكريم والشعر العربي وغيرهما وصولا إلى الحجج الواقعية. و أثناء تصوير الواقع، وتسليط الأضواء على قضية معينة فيه، ومن خلال إسناد الأدوار إلى الشخصيات، يجعلها تتصارع في حلبة الرواية، وكل منها يمثل صوتا معينا، وهو بالتالي يقيم حوارية حجاجية قائمة على الكلام بين شخصين أو أكثر و ينتصر في النهاية لرأي معين يريده.

الكلمات المتاحية: حجاج، حوار، سارد، شاهد، خطاب.

Abstract:

In this article, we try to research the narrative discourse of Abd al-Malik Murtad, and focus in his novel - Ain al-Tineh - on the methods of al-Hajjaj. The main goal of writing this article is to search for how to convince the narrator to the recipient of a set of ideas and philosophies, as he seeks at other times to criticize a certain party or refute an idea ,two or more people and ultimately triumphs for a specific opinion he wants. according to what he pleases or desires, such as refusing to visit shrines Hajji peace, beginning with the Qur'an Karim, Arabic poetry and others, and approaching them, calling them and praying to them. He invests the down to realistic arguments. And while filming reality, highlighting a specific issue in it, and by assigning roles to characters, he makes them and thus it establishes an argumentative dialogue based on speech between wrestle in the arena of the novel Each of them represents a specific voice ,His goal is always to get the reader to share his opinion, or to act .

Keywords: arguments**,** dialogue narrator, witness, speech**.**

1. مقدمة:

تزخر رواية عبد الملك مرتاض "عين التينة" بكثرة أساليب الحجاج، وهو ينتصر لمجموعة من الأفكار، ويحاول دحض أخرى. وقد وظف مجموعة من الشخصيات وأسند إليها بعض الأدوار، وجعل يتحدث بلسان

* المؤلف المرسل

السارد لإقناع القارئ بما يريد من أفكار، وقصده في الأخير هو التأثير في القارئ، وتصحيح بعض المغالطات في المجتمع.

والإشكالية المطروحة في هذه المقالة هي: كيف يتمظهر أسلوب الحجاج في الخطاب الروائي لدى عبد الملك مرتاض؟ وما هو دور الشخصيات في صناعة هذا الأسلوب؟ وكيف يسهم السارد في تناسله من خلال حوار الشخصيات في رواية (عين التينة) .

2 مفهوم الحجاج:

1.2 لغة: يرجع مصطلح (الحجاج) في المعاجم العربية الى مادة (حجج) التي تتركب و تشتق منها عدة كلمات مثل الحجة والتحاج، والاحتجاج...، وله عدة مرادفات منها الاستدلال والبرهان، وكلها تصب في مصب واحد تقريبا. ويظهر هذا في قول الرازي: "الحج في الأصل: القصد(...) والحجة؛ البرهان، وحاجه، فحجه من باب رده، أي غلبه بالحجة، ... والتحاج: التخاصم..."[1] .

أما ابن منظور، فيحصر تلك المعاني في القصد؛ ويورد المعاني التالية:

الحج: القصد، حج إلينا فلان أي قدم، وحجه يحجه حجا: قصده، ورجل محجوج أي مقصود...

والحجة: البرهان؛ وقيل: الحجة ما دوفع به الخصم؛ والحجة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وجمع الحجة : حجج، وحجاج؛ نازعه الحجة، والرجل المحجاج هو الرجل الجدل...[2]. ويكاد اللغويان يتفقان في معنى الحجة والجدل تقريبا.

2.2اصطلاحا: الحجاج مفهوم قديم، وقد ظهر عند جميع الأمم، وشكل بنية مهمة من بنيات اللغات والخطابات القديمة عند العرب والغربيين، وقد عرف منذ عهد أرسطو أو قبله كمفهوم؛ وذلك لحاجة المفكرين والفلاسفة لهذا الأسلوب الذي يعد عصب الكلام، والحوار بين المفكرين، خصوصا عند اختلافهم وتنازعهم حول مسألة ما. والحجاج أسلوب إنساني راق تتطلبه الحياة الاجتماعية، وذلك لرغبة المتكلم في إقناع المخاطبين بآرائه وأفكاره.

وأقل ما يوصف به الحجاج، إنه مفهوم عام ظهر في مختلف الثقافات الإنسانية[3] .

ولا يمكن بأي حال أن نعتبره مفهوما حديثا؛ إذ يذكر المتخصصون في هذا المجال أن تاريخه يرجع إلى أزيد من خمسة وعشرين قرنا من الزمان[4] فالإنسان في حياته الاجتماعية أثناء كلامه بحاجة إلى الإقناع والاقتناع، ولذلك يستدل على أقواله بالحجج المختلفة للتأثير على من يحاورهم، وجعلهم يصدقون أقواله ومزاعمه.

والحجاج أسلوب راق، يصاحب حياتنا الاجتماعية في جميع مجالاتها الاقتصادية والسياسية والدينية والتعليمية وغير ذلك؛ فالإنسان في كل اتصالاته مع غيره يوظف أسلوب الحجاج أثناء كلامه و في جميع معاملاته، وحتى في سلوكه اليومي، و يسعى للتأثير على من يحاورهم وهدفه في النهاية هو إقناع الآخرين بما يطمح إليه من نشر فكرة أو دحض أخرى.

ومن هذا المنطلق، تفرعت نظرية الحجاج إلى مجالات كثيرة منها الجانب الفني والإبداعي والتواصلي والفلسفي والديني وغيرها، فالحياة الاجتماعية برمتها قائمة على هذه الدعامة المنطقية الإنسانية.

وتكاد نظرية الحجاج تكتسح جميع الحقول المعرفية في حياة الإنسان، خصوصا ما تعلق منها بعملية التواصل البشري بشتى أنواعه، سواء ما تعلق بالجانب الإبداعي والأدبي من خلال الفنون النثرية كالرواية والقصة القصيرة والمسرحية، والمقالة والخطبة والأمثال والحكم، أو ما تعلق بالقصيدة الشعرية.

3 دور السارد في إنتاج حوارية حجاجية:

لاشك، إن الكتابة الأدبية النثرية ممثلة في الرواية، توظف أسلوب الحجاج بأشكال شتى، والهدف الأساسي من هذا هو إقناع متلقي النص بمجموعة من الأفكار والفلسفات، كما يسعى الروائي أحيانا أخرى إلى نقد جهة معينة أو دحض فكرة ما، وهدفه دائما هوً حمل المخاطب على مشاطرة المخاطب رأيه، أو التصرف وفقا لما يرضاه أو يتوخاهً [5].

ولقد كانت الرواية ولا تزال تعبرعن حياة كاملة أو قطاع رحب بكل ما يعتري هذه الحياة، أو هذا القطاع من تقلبات مختلفة [6]؛ أي إن الروائي دوما يحاول تصوير جانب من المجتمع، ويسلط أضواءه على فكرة معينة، أو جانب مهم منه، ويسند الأدوار إلى شخصياته، ويجعلها تتصارع في حلبة الرواية، وكل منها يمثل صوتا قد يمثل الفكرة التي يطمح إلى إثباتها أو نفيها ودحضها؛ مثل الفكرة الدينية التي تتحدث عن أولياء الله الصالحين وما يتصل بهم حول قضية التأثير في الكون والإنجاب وغير ذلك، ومن أمثلة ذلك ما ورد في روايةً عين التينةً كقول السارد بلسان إحدى الشخصيات: " كانت المرأة العقيم، وهي تزدار الولي سيدي الغريب، تنذر أمام ضريحه نذرا؛ فتقول، أو تنتوي، معاهدة عاقدة في قرارة نفسها عزما، وفي نيتها إخلاصا وصدقا:

- إني والله لئن حبلت فوضعت صبيا، لأسمينه باسمك، يا سيدي الغريب الصالح، تبركا بك ولك برا..."ً [7].

ويبدو من خلال هذا الصوت الروائي، إن الكاتب يعبر عن فكرة اجتماعية موجودة في بلادنا، و من هذا القول يتناسل الحجاج من لدن السارد، إذ يعطي الشخصية السردية الحرية ويمكنها من التعبير عما تعتقده. ومن القرائن الحجاجية والشواهد، لجوء الشخصية للقسم والتأكيد في قولها (إني والله... لأسمينه...) وهذا لحمل القارئ على التصديق والإيمان بخطورة هذه الظاهرة الاجتماعية، ومن الشواهد الأخرى المعتمدة أن الأزواج يعتقدون بهذا المعتقد و لا يمانعون بل يستحثون زوجاتهم للذهاب للولي الصالح كلما تعطل الحمل [8].

ولا يدل هذا المعتقد على موقف الروائي، بل يمكن أن يكون عرض هذا الرأي لتشريح هذه الظاهرة والدعوة إلى دحضها، وهذا ما لمسناه من رد السارد بقوله مثلا: إن كان بذلك الضريح ساكن حقا، أو هو ذكر جنسه، لا أنثى.

ويؤدي السارد على مستوى الخطاب الروائي وظائف شتى، أقلها الإخبار عن الشخصيات ووصفها، وتهيئتها للحوار، وهو بهذا يسهم في تناسل الحوار بين الشخصيات، ويتخلل ذلك أسلوب الحجاج الذي يلازم الكلام والحديث بينها في الرواية أثناء سرد الأحداث.

وهذا ما نلمسه واضحا في الخطابات الروائية التي يعمد فيها الكاتب عن قصد إلى ذلك من خلال شخصياته؛ فالسارد يقيم حوارات شتى معها خلال الحدث السردي. ويرسل أفكارا معينة ومقصودة غالبا، ويتوسل بالحجج المختلفة للتأثير على الشخصيات، ومن أمثلة ذلك قول السارد في الحوار الذي دار بين العم شلغوم والركاب عن شخصية حجر الواد الذي أسهم في تناسل هذا الحوار:

" الآن سخن محركها، فلننطلق، وباسم الله مجراها ومرساها ". لكن صوتا محموما يصدر من شخص كان يركض من وراء الحافلة ركضا شديدا...خشية أن تنطلق الحافلة فتغادر...فلا يلحقها:

ـ أنْ قفوا أن انتظروا، فإن لي شأنا...

لكن أصوات الركب تعالت مجتمعة، مصطرخة، محتجة معا:

ـ إياك يا عم شلغوم أن تقف حافلتك، رجاء، ننشدك بالله، إنه والله لمشؤوم محروم، ولن ترى منه إلا شرا.

ـ بل سأحمله، يا جماعة، إنه يشير بكلتا يديه، ألم تنظروا إلى حاله؟

تحملوه من أجلي...فما كانت وظيفة حافلتي إلا للقيام ببعض هذا، إن لي رسالة...

ـ قلنا لك إنه مشؤوم...ثم إنا نحن أدينا لك .. ثمن كل المقاعد تقريبا، كل منا دفع لك مائة دينار... وتقف الحافلة... وأخيرا وصل لاهثا... وهو يخاطب الجماعة من على درج الحافلة، متجاهلا العم شلغوم، ودون أن يحييه... قائلا:

ـ السلام عليكم يا رجال، ماذا تصنعون في حافلة العم شلغوم الحقيرة الهرمة؟... إني لأعلم مقصدكم علما... ولقد أخبرني راعي الحاج قدور البارحة غروبا، أن الحاج الغريب الذي أنتم ذاهبون الآن إلى عيادته في مستشفى المدينة، خرج منه أمس، وهو الآن في بيته... سقط في يد العم شلغوم المحروم، ولم يدر ما يصنع؟ لقد حلت به الكارثة من شؤم حجر الواد...

ـ الملامة علي وحدي يا جماعة، بل اللعنة، وغضب الله علي، أنا السخيف الغبي، أنا الجشع الطماع، لم أعمل برأيكم، ولا انتصحت بنصيحتكم... " [9]

نلمح من خلال هذا الحوار السردي، مجموعة من الآليات الحجاجية الكثيرة؛ حيث كان العم شلغوم يحاول إقناع الركاب بتوقيف الحافلة وإركاب هذا الرجل، ومن الحجج المقدمة من لدنه: الرجل يلهث، سيربح مائة دينار، إنه يحمل رسالة اجتماعية، إنه ليس مشؤوم، يجب الرحمة بهذا الزبون، وغير ذلك.

أما الركاب، فمنعوا حجر الواد من الركوب، مقدمين حججا منها : إن هذا الرجل مشؤوم، الشفقة على العم شلغوم منه، قد دفعوا له تسعيرة جميع المقاعد، إنه مجرد من الخير وغير ذلك كثير. وبني هذا الحوار من أدوات التوكيد مثل إن و أن، والتعجب، والاستفهام الإنكاري، والنفي، والقسم المتكرر.

والفكرة التي يشرحها الكاتب اجتماعية، سائدة بالمجتمع الجزائري، وهي التطيُّر ببعض الناس، وإلحاق بهم النحس والشؤم والشر المستطير، وقد تناولها بأسلوب حواري، ووظف فيها آليات الحجاج المشار إليها.

والحجاج عموما، هو مفهوم عام في مختلف الثقافات الإنسانية، وهو أسلوب متمم للتواصل البشري، وغالبا ما ينتج عن التدافع الفكري أو المذهبي إنه قاسم مشترك بين تلك الثقافات، وهو أداة منهجية لها قواعدها وأدبياتها[10] .

ويظهر من القول؛ إن الحجاج يدخل ضمن التواصل البشري، أي الكلام يقتضي التحاجج، وذلك لاختلاف الجانب الفكري والمذهبي للناس، فهم بحاجة لتقوية كلامهم ومحاوراتهم بالحجج المادية والمنطقية لإقناع الغير وإفهامهم.

والسارد يحمل مجموعة من الأفكار، يريد نشرها، ومن خلال تهيئة الشخصيات للحوار فيما بينها، فإنه يبث تلك الأفكار على لسانه أو لسان تلك الشخصيات، ويعززها بمجموعة من الحجج والبراهين لإقناع القارئ بها، وترسيخها، وهو بهذا يسهم في صناعة الحوارية الحجاجية، وهي أهم وظائفه على مستوى السرد الروائي.

4. البنية اللغوية الحجاجية للسرد الروائي:

1.4مفهوم السلم الحجاجي:

إن السلم الحجاجي بنية مهمة وهو أساس أي خطاب يقتضي الحجاج ويمكن أن يحدد بأنه مجموعة غير فارغة من القولات، مزودة بعلاقة ترتيبية، وموفية بشرطين على حد قول طه عبد الرحمن، ومن ذلك؛ أن كل قول استشهد به في السلم، يلزم عنه جميع الأقوال الأخرى التي تقع تحته من جهة، وأن يرتب ذلك القول الأول كأعلى دليل فيه، وتكون باقي الأقوال دونه في القوة [11].

واستنادا على هذا؛ فالحجاج يقتضي اعتماد أعلى قول، قصد الاستشهاد وإقناع الغير، ثم نتدرج إلى القول الذي دونه قوة إلى أن نصل إلى الأدنى منه وهكذا، والهدف من ذلك كله أن نقنع المخاطَبَ بالتدرج من أعلى سلطة قولية إلى أدناها.

ولقد وظف عبد الملك مرتاض مجموعة من الحجج، تؤلف في مجملها سلالم حجاجية، وتسهم في تشكيل لغة النص الروائي و الحوارية الحجاجية عموما، وهي في الوقت نفسه حوار جاد مع التراث العربي القديم، واستحضار بعضه بكيفية أو بأخرى، ويرى ابن ظافر الشهري، إن السلم الحجاجي يعني ترتيب الحجج التي يرى أنها تتمتع بالقوة اللازمة التي تدعم دعواهً [12] ومن النصوص التي أدخلها الروائي في هذا الخطاب نذكر منها:

2.4النص القرآني:

ومن صور التأثر بالقرآن الكريم والاستشهاد به، ولو عن طريق الاقتباس نجد سارد الرواية يقول: " فلو كان في الأرض والسماء آلات موسيقية إلا العود لفسدتا "[13]. وهنا يريد السارد أن يقنعنا بأن آلة العود لا شيء ولا آلة أخرى تعوضها، في أصواتها الجميلة، فهي أساس أي موسيقى، ولم يجد السارد كيف يقنع المتلقي إلا بالقرآن الكريم. وقد تأثر بالآيات التالية:

{**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**} سورة الأنبياء، الآية 22 .

فالبون شاسع بين التوحيد وبين الآلات الموسيقية، ولا علاقة بين هذين التشبيهين إلا من شدة الإعجاب بآلة العود من جهة، والتأثر الشديد بالقرآن الكريم لدرجة الاستشهاد به ولو في محل غير صحيح تماما.

كما نجد في الرواية أسلوبا حجاجيا آخر ، حيث وظف السارد الشاهد من القرآن الكريم، واستشهد به ليستعرض بطش الإسبان في الأندلس؛ ويظهر هذا في قول السارد: " لقد قتل التعصب الديني الأعمى أفراد أسرة رحمون الصنهاجي من صاحبته وبنيه وأبيه الشيخ وما ارعوى. ها قد فتك بهم فتكا. بل ها قد وأدهم وأدا. فعل بهم على نحو ما فعل بأصحاب الأخدود وهم أحياء..."[14].

كانوا يخيرون بين أن يتركوا دينهم أو يلقوا في الأخاديد التي ملؤوها نارا، فيحرقوا فيها، ولا شك إن الروائي قد أحسن المحاججة في هذه العبارة؛ لأنه أراد أن يقنعنا ببطش الإسبان بالمسلمين في الأندلس، فلم يجد صورة مشابهة لذلك غير ما فعل الكفار بأصحاب الأخدود قديما؛ لأن كلام الله يمثل أعلى مرتبة في سلم الحجاج، فاستشهد بهذا النص القرآني الذي يعرفه العام والخاص. وهذا ما يعرف بالتمثيل، وهو أسلوب مهم جدا في العملية الإقناعية، و بالتالي يعطي قوة لانطلاق العلاقة الحجاجية عن طريق المعطيات التي تترسخ عنها الخلاصة التي تفضي بالنتيجة على الحجة[15].

و نجد السارد يستشهد بآيات قرآنية صريحة ومعلنة غير مضمرة، وذكرها على سبيل الاستدلال والإقناع وتظهر في قول السارد: " فلست مقتنعا بفتواك. لأنها تخرج عن الفتاوى الشرعية... يذهب النساء إلى المدرسة ليتعلمن... فنمسي سواء، فيلغي حكم الشرع الوارد في قوله تعالى: {**الرِّجَالُ قوّامُونَ على النِّساءِ**} إنا نوشك أن نتحكم فيهن، فيمسين ناشزات... "[16].

ويبدو، إن الروائي يريد أن يرسل فكرة، ويعالج مشكلة اجتماعية كانت سائدة في المجتمع الجزائري والعربي، وهي قضية تعلم المرأة؛ فالكثير من الناس كانوا يعتقدون إن ذلك خرق لقيم المجتمع المحافظ، وقد وظف السارد هذه الآية الكريمة، ليبين أن بعض العامة يسيئون تفسيرها، ويعتقدون الصواب خطأ والخطأ صواب. ولهذا يلجأ المتخاطبون إلى القرآن للاستدلال به وإقامة الحجة، فيتم " تضمين الآيات القرآنية والأحاديث وأبيات الشعر والأمثال والحكم، وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن الأمور الدينية. [17]

وقد لجأ السارد إلى الاستشهاد بالنص القرآني على لسان العامة، ليصبح هذا النص حجة عليهم لا لهم. وهو بهذا يدعو إلى تعلم المرأة لكن بطريقة عكسية تماما وغير معلنة؛ ليبين، إن الخطأ لا يسلم منه حتى من أسندت إليهم الفتوى، وغير ذلك من مصادقة الناس عليها ومن تواترها.

3.4النصوص الشعرية:

لقد وظف الروائي الكثير من الأبيات الشعرية، وأقام حوارية مع بعض شعراء التراث العربي القديم، واعتمدها كحجج وأدلة على صحة أقواله. ومن أمثلة ذلك ما ورد في هذا المقطع السردي، وهو يخبرنا عن شخصية رحمون الصنهاجي، " ظل يعقد جلسات يومية للبكاء، يبكي فيها أولاده الأربعة وأمهم الجميلة الوديعة التي وئدت

مع ولدها شناعة وتعصبا... ولا عمرة ابنة النعمان بن بشير...التي قتلت بعد أن حفرت لها حفرة ، حتى قال الشاعر في ذلك شعرا:

كُتب القتلُ والقتالُ علينا وعلى الغانيات جَرُّ الذيولَ

الحال كالحال، والزمان كالزمان، ولا مبدل لسيرة الإنسان المتوحش تبديلا "[18]

وقد استحضر عبد الملك مرتاض هذا البيت الشعري، وجعل السارد يستشهد به، ليصور بشاعة القتل التي تعرضت لها أسرة رحمون الصنهاجي قديما بالأندلس، ويقارنها بالقتل في زمن الفتنة وانقسام المسلمين إلى طوائف، وتنازعهم، ليستدل السارد على وحشية الإنسان، وهذه الحجة أقوى من مجرد الإخبار عن حادثة القتل، التي أرّخ لها الشاعر، خصوصا لما ذكر المرأة المقتولة، وهي شخصية معروفة قديما. ولا يقف الأمر إلى هذا، فكان السارد يتحدث عن بشاعة الجرم والقتل التي يتعرض لها الأبرياء في هذا الزمان، وكأن التاريخ يعيد نفسه في كل مرة.

ومن النصوص الشعرية الكثيرة التي استشهد بها السارد، وأقام معها حوارية جميلة، أنه جعل شخصية "الناسك الغريب" تتذكر أبياتا، قالها الناسك "مسكين الدارمي" تمثلا وتخيلا :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بناسك متعبد؟

قد كان شمّر للصلاة ثيابه حتّى خطرت له بباب المسجد

ردي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق دين محمد

فالموقف واحد، والمقام نفسه، إن السارد يجعل من شخصية الناسك في رواية "عين التينة " هي نفسها الناسك ربيعة بن عامر التميمي المعروف بمسكين الدارمي في العهد القديم؛ لأن الشخصية، بعيدة عن الشهوات، منقطعة عن الدنيا للعبادة والصلاة وفجأة ترى حسناء جميلة، فتفتنها، وتأخذ بتلابيبها، تماما مثل ما حدث للناسك في العهد القديم أمام باب المسجد. و الفكرة التي يحتويها هذا النص الحجاجي، هو إغراء المرأة، وفتنتها التي لا تقاوَم.

4.4 الحكمة:

الحكمة من أهم النصوص التراثية التي دخلت رواية " عين التينة " و نجد السارد يصور حالة بطله رحمون الصنهاجي فيقول على لسانه: " لقد ذهب الزمن الجميل بكل أحلامه، وانقضى. ولا يرى أيامه الذواهب، برواجع عليه أبدا. كان يتمثل دائما قول عائشة في حديثها عن الدنيا : " ذهبت لذواها، وبقيت بلواها "[19]

ويبدو إن الكاتب مولع بالتراث العربي، فقد مكّن هذه الشخصيته من ربط حاضرها بالتراث العربي وشخصياته الفذة؛ حيث إن الحالة المزرية التي آلت إليها الشخصية، تصورها الحكمة التراثية المشار إليها وتجد فيها العزاء، وكأن الشخصية تعيش واقعا عاشه أناس قبلها منذ قديم الزمان. وهذا النص (الحكمة) هو مكمن الحجاج الروائي في " عين التينة " و"هذا ما يؤكد الوظيفة الحجاجية للشاهد الثابتة في الاستشهاد أو الاستدلال لإثبات القاعدة، وبهذا يمكن أن يكون ذلك الجزئي آية من القرآن الكريم أو حديث من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بيت من الشعر الصحيح، أو من كلام العرب المشهود لهم بالفصاحة والبلاغة ... "[20].

5 حجاجية الأساليب البلاغية:

يشير الكثير المشتغلين على الخطاب الأدبي من وجهة نظر البلاغة العربية، إن النصوص العربية تشتمل على الكثير من الأساليب الاستدلالية؛ حيث يدخل الحجاج في بنية اللغة قصد الإقناع والاستدلال. ويرى الجاحظ إن الشاهد هو عنصر من عناصر الحجاج ، وهو مرادف للحجة والدليل والبرهان، وللشاهد دلالة بلاغية وبيانية، كما له حمولته العقلية والمعنوية فيه يحصل التصديق والاستدلال والخبر والبرهنة على صدق الكلام[21].

والمهتم ببنية اللغة البلاغية، يلحظ احتوائها على عناصر بيانية كالتشبيه والكناية والاستعارة، ويلحظ أنها تدخل في تشكيل الحجاج والبرهان على قضية ما.

1.5الروابط الحجاجية في رواية عين التينة:

2.5 ألفاظ التعليل والتأكيد:

تعد الروابط وأدوات التوكيد أهم بنية في أساليب الحجاج، إذ باستخدامها نبرهن بطريقة أو بأخرى، ونستدل على صحة ادعائنا، وصدق كلامنا، وقد أشار عبد الهادي بن ظافر الشهري بأن الروابط الحجاجية يجسدها السلم الحجاجي بأدوات وآليات لغوية هي: لكن، حتى، فضلا عن، ليس كذا، فحسب...[22].

وبعد قراءتنا لرواية "عين التينة" وجدناها تحتوي قدرا كبيرا على أساليب حجاجية، ومن مؤشرات ذلك كثرة أدوات التوكيد والتعليل والاستدلال، ومن أمثلة ذلك،(إنما، لأن، إن، أن وبهذا)؛ وقد استخدمها السارد بكثرة في خطابه الروائي.

وبالإضافة إلى ذلك كله، نجد التوكيد اللفظي كقول السارد:"إني والله، لأتوسم في هذا المشروع الشر كل الشر ، والشؤم كل الشؤم"[23]، ولتكرار اللفظة دلالة قوية على الوثوق بالقول، والحكم الذي يجزمه، ولو لم يكرر اللفظتين لكان شيئا آخر.

كما استخدم السارد الفعل الماضي الدال على التأكيد بعدما اتصلت به أداة 'قد' بكثرة كقوله: " كان أهل القرية احتفوا بمقدم المعلم لأول مرة، منذ مساء البارحة احتفاء حارا. لقد أصبح لهم مدرسة ومعلم كالقرى الأخرى..."[24]

ولا يدل الفعل الماضي على نقل الخبر فحسب، بل يدل على وقوع ذلك الحدث فعلا، خصوصا لما يخبر عنه السارد، ويختاره اختيارا من بين جميع الأزمنة، فهو يناسب الإخبار عن وقوع الحدث الذي تقوم به الشخصيات بمعية السارد في الخطاب الروائي. وبالإضافة إلى ذلك كله؛ فالفعل الماضي هو دليل وبرهان وحجة دامغة، إذ يستخدمه السارد لإبداء حكم أو نقل خبر أو إبطال فكرة ودحضها أو تأكيد أخرى.

ومن أمثلة استخدام السارد لأدوات الحجاج على لسان إحدى الشخصيات السردية وهي تخاطب صاحب الشاحنة (العم شلغوم) قوله:" كلا، بل لابد من إركاب المسكين الراكض خلفنا...لكني جنبت هؤلاء الجماعة أن يدفعوا إليك ما دفعوا، عبثا وباطلا... لأن المريض في بيته... "[25].

تظهر أدوات الاستدلال والحجاج في هذا المقطع الحواري من خلال حرف النفي(كلا)، التي تدل على النفي القاطع دون شك ولا تردد، ثم ذكر حرف (بل) الذي هو عكس الحرف الأول تماما ويفيد التأكيد والإصرار على صحة الإدعاء والقول.

ثم تستخدم شخصية (حجر الواد)حرف الاستدراك (لكن) الذي يريد من خلاله إقناع صاحب الشاحنة (العم شلغوم)، بالفعل الذي أقدم عليه، وهو التسبب في إنزال الركاب، ويظهر الإقْناع في قوله: (لأن المريض في بيته).

فلفظة (لأن) تدل على الاستدلال والبرهنة والإقناع، وهذه الأدوات التي ذكرناها، إنما هي روابط حجاجية، وهي تربط بين الأقوال، وقد تكون عناصر نحوية مثل أدوات الاستئناف كالواو والفاء ولكن وإذن وغيرها كثير، ولهذه الروابط على مستوى النص الأدبي وظائف كثيرة منها إنها تضمن ترابط النص وتلاحم جمله وفقراته، كما إنها تعمل على اتصال أجزائه، وقد قسمها اللغويون إلى قسمين: روابط نحوية تشمول جميع الحروف النحوية مثل الفاء والواو وثم وغيرها وروابط تداولية حجاجية مثل: بل ولكن وحتى[26] .

6 دور السارد في إنتاج حوارية حجاجية:

1.6 الحوار الحجاجي في رواية عين التينة:

لقد حفلت رواية "عين التينة " بمقاطع حوارية كثيرة، حيث وظف السارد الكثير منها، وقد مكن شخصياته من الحوار والتعبير وتبادل الكلام. وكان السارد يشرف عليه وينظمه بتقديم وتهيئة الشخصيات للحوار، بل جعلها تتصرف وتوظف الحجاج أثناء تبادل الكلام، وما يلحظ على الحوار السردي في (عين التينة) إنه حوار هادف؛ بحيث يعتمد على الاستدلال و يسعى إلى الإقناع.

ومن أمثلة الحوار في الرواية:":

ـ إنك أيها الشيخ، لتتحدث منذ الليلة عجبا، رجلا أتاويا دفن إلى ضريح منقطع عن الدنيا... أم أحدث أمرا بيننا إذا؟

ـ أنا لا أريد إلى هذا على الرغم مما يريبني من أمره ريبا، بل إنك لتعلم أني أرى زيارة القبور إلحادا وكفرا، ولم يزل النساء العباديات، يختلفن إلى هذا الضريح الغريب، فيلتمسن منه إنجاب الولد متناسيات، أو متجاهلات الخالق الأعلى...

ـ الزمان غير الزمان، والمكان غير المكان، فلا تصح المقارنة بينهما يا إمامنا. كأنك تريد أن تقول: إن إسلام السلف الصالح هو غير إسلامنا، وما نستحدثه من بدع في معتقداتنا وسلوكنا لا يتنافى مع المباديء السمحة للإسلام فتيلا؟

ـ أريد فقط أن أقول: إن النهي عن زيارة القبور والأضرحة لم يثبت يقينا... ثم إن هذا كله من تضييق بعض الفقهاء المتشددين... ولو اتهمت أحدهم بالشرك لشتمك شتما...

ـ ما كنت أحسبك متسامحا متجاوزا إلى هذا الحد الأقصى، وقد فهمت أنك تنظر إلى هذا الأمر على أنه دأب اجتماعي..."[27]

و يبدو من خلال هذا الحوار الذي جرى بين شخصيتين روائيتين هما (الإمام) و(الحاج الغريب)؛ إن ثمة فكرة دينية واجتماعية يريد الروائي أن يعالجها في هذا الحوار الحجاجي؛ حيث وظفه السارد بقوة، إذ جعل شخصية (الإمام) تتكلم بحزم عن خطورة الظاهرة وهي الشرك ودعوة أولياء الله الصالحين بدل الله تعالى.

وقد عرض حججا قدمها الإمام لإقناع محاوره، كما كان لهذا الأخير حججا أخرى قابله به، ففي الرأي الأول اعتبار زيارة الأضرحة حرام، لأن الناس يطلبون منهم الذرية والزواج، والرد هو: اعتبار ذلك مجرد رأي من المتشددين، ولتجنب شتم وأذى هؤلاء.

وكان الرأي الأخير، الذي يكشف عن مستوى (الحاج الغريب) الذي يرى ذلك مجرد ظاهرة اجتماعية. والهدف من هذا الكلام الحجاجي هو عرض المشكلة في شكل حوار بين اثنين، وهنا تنبثق قضيتين، إحداهما صحيحة يعتمد فيها صاحبها على حجج قوية ، في حين تظهر القضية الثانية التي يعتمد فيها الذي يدافع عنها، لكن بحجج واهية. وينتهي الحوار، بحيث ينتصر الكاتب لفكرته التي يدافع عنها، وهدفه إقناع القارىء بخطورتها، وحثه على تجنبها، والحذر منها.

7. خاتمة:

نخلص في نهاية هذا المقال إلى عرض مجموعة من الأحكام العلمية، وذلك من خلال البحث عن تجليات الحجاج في رواية "عين التينة " لعبد الملك مرتاض. وقد وظف الروائي أسلوب الحجاج بكثرة، لأنه كان يهدف لدحض بعض الأفكار الاجتماعية، والدفاع عن آراء أخرى، ونستخلص في النهاية مايلي:

ـ كثرة الأساليب الحوارية المدعمة بالاستدلال والبراهين على صحة ادعاء الشخصية التي تتحدث باسم الروائي.

ـ عرض السارد لبعض الظواهر الاجتماعية الخاطئة التي تحدثت عنها الشخصيات
السردية بغرض تشريحها وبيان خطئها ونقدها مثل قضية التقرب لأضرحة أولياء الله
الصالحين. وقضية التطير ببعض الناس، واعتبارهم يمثلون النحس والشؤم والشر
المستطير.

ـ تمكين السارد الشخصيات من التعبير بكل حرية، وتقبل آرائها، وبيان خطأ معتقدها من خلال الحوار بينها وبين الراوي.

ـ إقامة الروائي حوارية ممتازة مع التراث العربي ممثلا في القرآن الكريم والشعر العربي
والحكم وغير ذلك كثير.

ـ اهتمام الروائي بالجانب الديني، وبظاهرة التصوف من خلال عرض بعض شخصيات
التصوف مثل رحمون الصنهاجي وإمام القرية وغيره، وكذا عرض قضايا التصوف مثل ظاهرة الاهتمام بزيارة المساجد ودور العبادة والأضرحة .

8- الهوامش:

[1] محمد بن أبي بكر الرازي(660ه)، مختار الصحاح، مادة (حجج)، ترتيب محمود خاطر بك، دار الفكر للطباعة والنشر ط1981.

[2] محمد بن مكرم بن منظور(711ه) ، مادة (حجج) إعداد: يوسف خياط، تقديم الشيخ العلايلي، دار لسان العرب، بيروت(د-ت)

[3] أحمد زاوي، حجاجية المقال الديني عند ابن قيم الجوزية، مجلة العلوم الإسلامية، العدد:29، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، ص123.

[4] محمد الولي، مدخل إلى الحجاج، أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، مجلة عالم الفكر المجلد 40، الكويت2011، ص24

[5] رضوان الرقبي، البلاغة والحجاج، بحث في تداولية الخطاب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2018، ص: 60.

[6] محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص17

[7] عبد الملك مرتاض، رواية عين التينة، دار القدس العربي، وهران، الجزائر 2019، ص61

[8] ينظر عبد الملك مرتاض، المصدر نفسه، ص61.

[9] عبد الملك مرتاض، عين التينة، ص 18،19،20

[10] ينظر حمو النقاري التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة محمد الخامس الرباط، 2006 ص82

[11] ينظر طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،ط1 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب1988، ص254.

[12] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1 ليبيا، 2004، ص500

[13] عبد الملك مرتاض، عين التينة، ص99.

[14] عبد الملك مرتاض، الرواية، المرجع نفسه، ص103

[15] ندى هاشم عبد الله، حجاجية الخطاب الروائي عند عزيز السيد جاسم، مجلة بحوث الشرق الأوسط، مج: 4 عدد 50 ، جامعة بغداد ص185

[16] عبد الملك مرتاض، الرواية، ص336.

[17] محمد العمري، بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري تطبيقي لدراسة الخطاب العربي ، الخطابة في القرن الأول نموذجا، ط1 دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب 1981، 65.

[18] عبد الملك مرتاض، عين التينة، ص70.

[19] عبد الملك مرتاض، رواية عين التينة، ص70.

[20] رضوان الرقبي، البلاغة والحجاج، ص127

[21] حبيب عراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، عالم الفكر، المجلد40 ، الكويت ص109

[22] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، ليبيا، 2004، ص478.

[23] عبد الملك مرتاض، الرواية، ص38.

[24] عبد الملك مرتاض، الرواية، ص39.

[25] عبد الملك مرتاض، رواية عين التينة، ص22.

[26] ينظر رضوان الرقبي، البلاغة والحجاج، مرجع سابق، ص62.

[27] عبد الملك مرتاض، الرواية، 152، 153.